

بسم الله الرحمن الرحيم

منهج القرآن في البناء السلوكي للإنسان في سورة الحجرات

د. حمد بن حسين الجمعيدي

المقدمة

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، وصلى الله وسلم على نبينا محمد إمام الهدى. وبعد: فسورة الحجرات بآياتها القليلة في عددها الكبيرة في مضامينها اشتملت على أصول وحقائق وقواعد في رسم المنهج للعقل الإنساني الصحيح في العقيدة والسلوك؛ لإخراج الإنسان الصحيح كما يريد الله في الأرض، الإنسان الذي يصدر عن إرادة الله الشرعية ويتجه إلى الله في عقيدته وعمله، ويعيش في سعة شريعته ورحمته متخلقاً في سلوكه بأخلاق الإسلام الذي أتمه الله وأكمله ليعيش به الإنسان في أحسن تقويم؛ ليحقق استخلافه في الأرض وينسجم مع الخير الذي تعمر به الحياة.

هذه السورة التي تنعت بسورة الآداب في جميع اتجاهات تعامل المسلم مع الله ﷻ ومع رسوله ﷺ ومع الآخرين، وتبين حدوده، يحق لنا أن نسميها سورة العقل الصحيح في مناهجه العلمية والفكرية في العقيدة، ومناهجه السلوكية والعملية في التعامل والتخلق ومواجهة الأحداث والتثبت في الأخبار ونقدها وتوثيقها وتوظيف المشاعر والأحاسيس والاستجابات الانفعالية التوظيف الصحيح الذي يبني المجتمع المسلم ويبقيه متماسكاً يحسن التعامل فيما بينه ومع الآخرين.

- أهمية البحث.

تظهر أهمية البحث في المحاولة التي يطرحها لبيان مقاصد القرآن في بناء الإنسان الصحيح، أو الإنسان في أحسن تقويم بقيم هذا الدين العقدي والعملية السلوكية والأخلاقية في وقت يعيش فيه كثير من المسلمين في غيبوبة الوعي الشرعي، والبعد عن مصدر توجيه الأمة ومرجعها وحبلها الواصل لها بالله الرابط بينها، والتردي في شتات الآراء واتباع الأهواء.

- أهداف البحث:

١. بيان منهج القرآن العقدي والسلوكي في ضوء آيات من سورة الحجرات لبناء الإنسان المسلم الصحيح.
٢. بيان علاقة العقل بالنقل.
٣. التعقل في تلقي الأخبار ونقلها.
٤. أهمية رابطة الأخوة واحترام متطلباتها.
٥. الوفاء بمقتضى الوحدة الإيمانية والوحدة الإنسانية.

- منهج البحث:

يتبع البحث المنهج التحليلي والوصفي لدلالات آيات من سورة الحجرات لبيان بعض الأسس التي يقوم عليها بناء الإنسان في القرآن في تمهيد ومبحثين.

- خطة البحث.

يأتي البحث في:

• مقدمة تشتمل على ذكر:

أهمية البحث - أهداف البحث - منهج البحث - خطة البحث.

• تمهيد يشتمل على:

مفهوم العقل في اللغة العربية والاصطلاح. وذلك لأن القرآن يطالب بالعقل فعلاً قائماً في الفكر والسلوك، ولم يذمه قط؛ إذ العقل الضبط لمناهج التفكير في الاتجاه الصحيح، والضبط للتصرفات السلوكية والعملية كما يليق بالإنسان. ولما كان البحث في المنهج العقدي والسلوكي لبناء الإنسان في سورة الحجرات وتوجيهه الوجهة الصحيحة فيهما، ولأن هذا الدين دين العقل الصحيح السالم من الدخل، وهذه السورة منارات هدى للعقل في وضعه الصحيح رأيت أن يكون التمهيد في بيان مفهوم العقل باختصار لعله يفني بالمطلوب كمدخل للبحث.

• المبحث الأول: المنهج العقدي في سورة الحجرات. وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: التحليل الدلالي للآية الأولى فاتحة السورة ومطلعها.

المطلب الثاني: الدلالة العقدية وتحديد منهج التلقي.

• المبحث الثاني: المنهج السلوكي في سورة الحجرات. وتحتة مطلبان:

المطلب الأول: التثبت في قبول الأخبار ونقلها.

المطلب الثاني: مقتضى الأخوة ومتطلباتها.

• خاتمة تشتمل على أهم نتائج البحث.

والله الموفق.

تمهيد

مفهوم العقل.

١ - العقل في اللغة:

مدار كلمة عقل في العربية على الضبط وما يمنع من الانفلات. والمعقل تطلق على ما يتترس ويتحصن به، والمعقل ما يلجأ إليه إذا حارب أمر^(١)، (والعقل من كل شيء: ما تحصن في المعقل المتمنعة)^(٢). والعقل نقيض الجهل^(٣)، والعقل التثبت في الأمور^(٤).

لهذه الدلالات اللغوية للعقل سمي عقل الإنسان الذي يتميز به عن الحيوان عقلاً؛ لأنه يمنعه من التورط في المهلكات^(٥)، وحجر له عن الشتات وعملا لا يليق به، ويجوز به الكمالات.

٢ - العقل في الاصطلاح.

أجمع الناس على أهمية العقل ووجوده من خلال ممارساته وآثاره، واختلفت عبارات الداهيين لتحديد ماهيته؛ فمنهم من حاول تعريفه بأنه ذات، ومنهم من عرفه بآثاره أو نتائجه. ولا شك أن في تركيب الإنسان قوة مدركة وغريزة فطرية لتقبل العلوم وإنتاج المعرفة، ويختص بها عن سائر الحيوانات؛ ولذلك حدّد به نوع الإنسان من جنس الحيوان. فهل هذه الغريزة هي العقل؟ أم العقل ثمراتها؟ أو هو التفاعل بين معطيات خارجية مثيرة وقوة فطرية مدركة مستجيبة ينتج عنها الربط بين الأسباب ومسبباتها والعلل ومعلولاتها والانتقال من المحسوس إلى المجرد وإدراك المحسوسات بالمشاهدة والغائبات بوسائط ومقدمات؟ هل هذه جميعها أو بعضها العقل؟ أو هي أدوات لحصول العقل؟

كثرت التعريفات للعقل وتعددت ولم تخرج عند السابقين والمعاصرين - في الجملة - عن كونه ذات أو ممارسات ونشاطات أو ثمرات. سأكتفي هنا بتعريفين للعقل بما أراه أجمع لما ذكر في ذلك أحدهما من السابقين كتعريف الإمام أبي حامد الغزالي إذ عدّ لفظ العقل من المشترك الذي لا يحدّ برسم واحد؛ لأن اسم العقل يطلق على عدة معان:

(١) - انظر: الفراهيدي، كتاب العين، ط بدون، السنة بدون، دار ومكتبة الهلال ١/١٦١. وابن دريد، جمهرة اللغة الطبعة الأولى

١٩٨٧ بيروت دار العلم للملايين ٢/٩٣٩. ابن منظور، لسان العرب، الطبعة الثالثة ١٤١٤، بيروت دار صادر ١١/٤٦٥.

(٢) - الفراهيدي، مرجع سابق ١/١٦١.

(٣) - الفراهيدي، مرجع سابق ١/١٥٩.

(٤) - الأزهرى، تهذيب اللغة، الطبعة الأولى ٢٠٠١، بيروت دار إحياء التراث ١/١٦١.

(٥) - انظر: المرجع سابق ١/١٦٠.

فيطلق على الغريزة التي يتهياً بها الإنسان لدرك العلوم النظرية، ويطلق على بعض العلوم الضرورية، كجواز الجائزات واستحالة المستحيلات، وعلى العلوم المستفادة من التجربة، وعلى الاتزان العاطفي^(١).

والآخر من المعاصرين تعريف لالاند الذي يقسم العقل إلى عقل مكوّن (بكسر الواو) وعقل مكوّن (بفتح الواو)^(٢)، وقد فسر الفيلسوف الفرنسي بول فوكيه العقل المكوّن بأنه: (الملكة التي يستطيع بها كل إنسان أن يستخرج من إدراك العلاقات بين الأشياء مبادئ كلية وضرورية، وهي واحدة عند جميع الناس)^(٣). أما العقل المكوّن عند لالاند فهو حصيلة فاعلية العقل المكوّن وحصيلة استدلالاته^(٤). وهنا نجد في تعريف العقل عند لالاند وتفسيراته المذكورة الجمع بين كونه غريزة ونتائجه من خلال تفاعلاته الحية الواعية مع معطيات خارجية؛ فتكون الغريزة شرط في تحصيل العلوم وإنتاج المعرفة.

لكن هل كل نتاج فكري يسمى عقلاً؟ أو العقل أخص من ذلك؟

إن القرآن لم يذم العقل قط، بل يطالب به ويطلب بوسائل الوصول إليه من البرهان والتفكير والتدبر والنظر والالتزام به، ويمقت عوائقه من التقليد والإعراض عن الاعتبار بالسنن الكونية والاجتماعية، وليس ذلك إلا بأن يكون العقل خيراً في الإنسان؛ ولذا لو قلنا: إن العقل هو الحصول على الحقيقة والانضباط بما لم نتعد عن الصواب، والتفاعل الفكري بين المعطيات والقدرات ومحاولات للوصول إليه؛ فنواتج التفاعل الفكري قد يكون عقلاً عندما يصيب الحقيقة وإلا فهو فكر أو رأي، وعلى هذا لا بد أن يتصف العقل بالموضوعية والعلمية. وعليه فكل ما ذكر في تعريف العقل مما يعبر عن ذاتيته أو المؤثرات فيه ما هي إلا أدوات لظهوره، وتسميتها عقلاً من إطلاق بعض الملزوم على لازمه؛ فالغريزة المدركة شرط في تحصيل العلوم وإنتاج المعرفة، ولا يلزم أن يكون كل ما تنتجه عقلاً؛ لتأثير المعطيات الخارجية فيها وقد تكون حقائق أو شبهات؛ لذلك عبر القرآن عنه بالفعل للدلالة على فاعليته، ولم يرد ذكره في القرآن بالمصدر؛ ولعل هذا مما حدا بالفيلسوف الإسلامي طه عبد الرحمن أن يعدّ العقل فاعلية وليست ذاتاً^(٥).

(١) - الغزالي، المستصفى، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ صيدا - بيروت المكتبة العصرية ٣٨/١ بتصرف.

(٢) - لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، الطبعة الثانية ٢٠٠١ بيروت - باريس دار عويدات، تعريب خليل أحمد ١١٦٤/١.

(٣) - طرايش، نقد نقد العقل العربي نظرية العقل، الطبعة الأولى ١٩٩٦ بيروت دار الساقى ص ١٣-١٤ نقلاً عن معجم اللغة الفلسفية لبول فوكيه.

(٤) - المرجع السابق ص ١٤

(٥) - انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، الطبعة الأولى ١٩٩٨ الدار البيضاء المركز الثقافي العربي ص ٢١-

إن مفهوم العقل قد أصابته نزعات وتوجهات مختلفة أعطت كل منها العقل بعداً أبعداً عن الحقيقة ومصادرها، بل أسقطته في أحيان كثيرة في نقيضه من الهوى. فليس إذاً كل ما يسميه الناس عقلاً يكون عقلاً في الحقيقة. لا بد للعقل إذاً من نور يستضي به، وينير له مسالك الرشاد، ويكون فوق العقل ومحيط به؛ وذلك هو هدى الله ونوره وبيانه في كتابه الذي أنزله بعلمه، وحفظه للناس في أرضه.

المبحث الأول: المنهج العقدي في سورة الحجرات.

المطلب الأول: التحليل الدلالي للآية الأولى فاتحة السورة ومطلعها.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الحجرات: ١]

ابتدأت الآية بالنداء الذي يلزم منه أن يكون موجهاً لمن يسمع ويعقل وقادر على الاستجابة والامتثال بوصف الإيمان الذي يتضمن التكريم والمقتضي للتسليم والانقياد لما رتب عليه من طلب يكون عادة من مقتضياته ومتطلباته. وهذا النداء الشريف في القرآن حيث وجد رتب عليه تكليف للأمة مجموعها أو لكل فرد من أفرادها؛ ولذلك كان من فقه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وحسن تدبره للقرآن وعنايته به أن قال: (إذا سمعت الله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فأرعاها سمعك فإنه خير يأمر به، أو شر ينهى عنه)^(١).

﴿يا أيها الذين آمنوا﴾ إن لهذه الصيغة في النداء بُعداً في الدلالة والتنبيه والتهيئة المستدعي مزيد العناية والاهتمام بما يطلب من المنادى تحقيقه والتمثل به منهجاً في الحياة لاقتضاء الإيمان له؛ فلا ينبغي الإخلال به فهو من مستلزمات التسليم لأصل هذه الدين ومصدره. وهو نداء داع إلى المحافظة على ما أمر به ووازع عما نهي عنه بناء على الصفة التي نادى بها؛ فهي صفة تربط العبد بربه، وتقتضي التلقي منه سواء عرف المسلم العلة أو الحكمة فيما أمر به أو نهي عنه أم قصر فهمه عنها؛ لما علم وعقل بأن الله يقضي بحكمه وحكمته الخالية من العيب.

إن كثيراً من التكاليف في القرآن بدأت بهذا النداء الكريم (إنه نداء للذين آمنوا نداء لهم بصفتهم الجديدة. وهي صفتهم الفريدة. صفتهم التي بها أنشئوا نشأة أخرى وولدوا ميلاداً آخر. ولدت أرواحهم، وولدت تصوراتهم، وولدت مبادئهم وأهدافهم .. وهي لمسة من لمسات المنهج التربوي الحكيم تسبق التكليف)^(٢)، وكل تكاليف الله للمسلم المرتبة على هذا النداء بإحداث أو كفي مصلحة للمكلف في الدنيا أو الآخرة، وكل ما رتب على هذا الوصف فهو من مقتضيات الإيمان ومتطلباته، وإن كان متفاوت الدرجات؛ فمنها ما يتعلق بالعقيدة، ومنها ما يتعلق بالعبادات العملية، ومنها ما يتعلق بالمعاملات ومنها ما يتعلق بالأخلاق والسلوك والتزكية ولكنها جميعاً تدعو إلى تطبيقات الصراط المستقيم، وتوضح المنهج الحق للمسلم في هذه الحياة عقيدة وعملاً إيجابياً مثمراً. وقد تكرر هذا النداء الكريم

(١) - ابن المبارك، الزهد والرفائق، الطبعة بدون، السنة بدون، بيروت دار الكتب العلمية ص ١٢

(٢) - سيد قطب. في ظلال القرآن. الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦ جدة دار العلم ٢/٧٧٥.

في هذه السورة خمس مرات وتعددت التكاليف المرتبة عليه وتنوعت للارتقاء بالعقل المسلم ووضع المنهجية له في مسالك الكمال، وفي كل مرة يرشدهم إلى مكارم الأخلاق والآداب في حسن التلقي وحسن التصرف والعمل، وأولها وأولها قول الله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، (تقول العرب: تقدمت في كذا وكذا وقدمت فيه إذا قلت فيه)^(١)، وقد كان من عادة العرب الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، ويتكلم بما يظهر له، فجرى من بعض من لم يتمرن على آداب الشريعة بعض ذلك، قال قتادة: فرما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا وكذا، وينبغي أن يكون كذا؛ لذلك قال مجاهد: معناه لا تفتاتوا^(٢) على الله شيئاً حتى يذكره على لسان رسوله ﷺ؛ لأن النبي ﷺ إنما يتكلم بالوحي^(٣). فالآية تنهي عن فعل التقدم بأي أمر من الأمور يكون مصدر تلقيها الوحي، وحذف المفعول ليعم القصد من النهي، أو ترك المفعول لأن النهي عن الفعل أبلغ؛ لإفادته النهي عن التلبس بنفس الفعل الموجب لانتفائه بالكلية والمستلزم انتفاء تعلقه بمفعوله أياً كان^(٤)؛ فلا اقتراح على الله أو على رسوله ﷺ، ولا تقديم رأي على شرع الله وأمره فيما لم يؤذن فيه بالاجتهاد؛ فما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم. وقُرأت ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾ بفتح التاء والقاف فيكون الفعل لازماً، وليس ذلك بمقصود على التقدم المكاني؛ لأن العرب تقول لا تقدم بين يدي الإمام ولا تقدم بين يدي الأب أي لا تعجل بالأمر دونهما ولا تقطع أمراً دونهما^(٥)، قال الأخفش: تقول العرب: فلان تقدم بين يدي أبيه، وأمه، ويتقدم إذا استبد بالأمور دونهما^(٦). فتكون القراءتان متفقتين على النهي عن تقديم الرأي والاستقلال به عن منهج الكتاب والسنة. وهذا يتضمن النهي عن أن يلحق بدين الله ما ليس منه، أو أن يتصرف الإنسان باسم الله وليس عنده في ذلك برهان يسمح له بأن ينسب فعله أو قوله إلى الله. فما كان مصدره الله ولا سبيل لعلمه إلا من الوحي يتوقف به عند مصدره المعصوم من كتاب الله وسنة نبيه قطعية الثبوت قطعية الدلالة؛ (فلا بد من وضوح المصدر الذي يتلقى عنه المؤمنون)^(٧)، وقد تكفل الله ﷻ بحفظ كتابه وبيانه في سنة نبيه ﷺ، فما كان سبيله التوقيف

(١) - ابن عطية، المحرر الوجيز. الطبعة الأولى ١٤٢٢/١/٢٠٠١ بيروت دار الكتب العلمية. ١٤٤/٥. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

(٢) - البخاري، صحيح البخاري، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ دار طوق النجاة ١٣٧/٦. والافتيات هو: الاختلاق وقول الباطل على آخر، وافتات عليه إذا انفرد برأيه من دونه. ابن منظور. لسان العرب. الطبعة الثالثة ١٤١٤ بيروت دار صادر ٦٤/٢، ٧٠.

(٣) - انظر: ابن عطية مرجع سابق ١٤٤/٥. وابن جزى الغرناطي، التسهيل لعلوم التنزيل. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ. بيروت شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم ٢٩٤/٢. تحقيق عبد الله الخالدي. وأبا حيان، البحر المحيط. ١٤٢٠ بيروت دار الفكر ٥٠٦/٩. تحقيق: صدقي محمد جميل.

(٤) - انظر: أبا السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود) بيروت، دار إحياء التراث العربي ١١٥/٨. والشوكاني. فتح القدير. الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م صيدا - بيروت المكتبة العصرية ٧٢/٥.

(٥) - انظر الشوكاني، المرجع السابق ٧٢/٥

(٦) - الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م بيروت دار إحياء التراث العربي. ٧١/٩. تحقيق محمد بن عاشور.

(٧) - سيد قطب، مرجع سابق ٣٣٤٠/٦

وقف به على دليله في دين الله، وما كان سبيله الاجتهاد اجتهاد فيه بضوابطه حتى لا يفتات على الله ﷻ ولا على رسوله ﷺ.

﴿واتقوا الله﴾ بالتسليم لأمره، وتحقيق شرعه بقدر الاستطاعة في فعل أوامره واجتناب نواهيه، ولا جرأة على الله في أن ينسب إليه ما لم يأذن به ولم يقله عن نفسه، أو أن ينسب إلى رسوله ﷺ ما لم يقله أو يأتي في شريعته، أو لا يكون على سننها ومقتضى قواعدها وأصولها ومقاصدها، أو لا يقبل التخريج عليها لبعده أو تعارضه مع أحد الأسس التي قامت عليها وهي: الرحمة والحكمة والعدل والمصلحة (فإن الشريعة مبنأها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلأها، ورحمة كلأها، ومصالح كلأها، وحكمة كلأها؛ فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث؛ فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتأويل)^(١)، ولزوم التوقف والاقتصار على ما حقه التوقيف، والاجتهاد فيما سمح فيه بالاجتهاد على بصيرة من الشريعة.

وفي الأمر بالتقوى مع ما نعت عنه الآية التقاء بين عمل الظاهر في عدم التقدم بالافتراح أو الاعتراض على الله وعمل الباطن بالتسليم والتقوى، وعندئذ يتحقق العلم الحق، وعند التسليم بهذا يسلم للمسلم الحق الموافق للعقل الصحيح ويزداد علماً ﴿واتقوا الله ويعلمكم الله﴾ [البقرة: ١٨٢]. وقد تكرر الأمر بالتقوى في هذه السورة والتنبيه به على التزام منهجها في عقل الأفكار وعقل التصرفات، بل الموضوع الوحيد من القرآن الذي أعلن فيه عن حقيقة التكريم عند الله للإنسان إنما يكون بالتقوى في هذه السورة ﴿إن أكرمك عند الله أتقاكم﴾ [الحجرات: ١٣].

﴿إن الله سميع﴾ لما باحت به ألسنتكم من مكنوناتكم، ﴿عليم﴾ بما انطوت عليه ضمائركم واعتقدته قلوبكم ظهر في أعمالكم وأقوالكم أو بقي سراً في نفوسكم، (فلا ينبغي أن يختلف قولكم وفعلكم وضمير قلبكم)^(٢)؛ فالله محيط بكل شيء علماً، فلا يقترح عليه إذاً، ولا يقدم بين يديه، وقد أنزل كتابه بعلمه المطلق الذي لا يتقيد بحدود الزمان والمكان. وختم الآية بهذا الاسم لله تعالى يدل على ما يقتضي تقديم شرعه وأمره على غيره؛ فعلمه محيط بخلقه، وأوحى إلى رسوله ﷺ بعلمه، وما ضمّنه كتابه من علمه، فضمن المطلوب في الآية بين صفتين صفة الداعي المطلقة وصفة المدعو المتطلبة التصديق المطلق؛ فصفة الإيمان تقتضي التسليم للعليم وتقديم ما أنزل الله وفيه علمه على ما يتراءى للفكر البشري القاصر وما ينتج عنه من ظنون وعقائد لا تتفق مع مضمون رسالة الله الأخيرة للناس.

(١) - ابن القيم، إعلام الموقعين عن رب العالمين، الطبعة الأولى ١٩٩١ بيروت دار الكتب العلمية ١١/٣.
(٢) - الرازي، مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ بيروت دار إحياء التراث العربي ٩٢/٢٨.

إن الإيمان بالله والإسلام له أول منازلته العقل، ويزداد المؤمن من ذلك العقل والتعقل بقدر ما يزداد استجابة لنداءات الله تعالى له بهذا الوصف والقيام بالتكليف المرتب عليه.

إن هذه الآية تربي المسلم على منهج التلقي والحكمة في وضع الأمور في مواضعها وإعطاء كل شيء قدره، حتى تسلم له المنهجية ويكون على صراط مستقيم.

المطلب الثاني: الدلالة العقدية وتحديد منهج التلقي.

جاء في هذه الآية من سورة الحجرات النهي عن التقديم بين يدي الله ورسوله، وهذا هو الأدب الأول فيها، وقد قُدِّمَ لأهميته لتعلقه بالإيمان والعقيدة. وتقديم ما يتعلق بتصحيح المعتقد أو بيانه أو ما يتعلق بالتوحيد والإلهية على الشرائع العملية هو منهج القرآن، والمنهج الذي سار عليه النبي ﷺ يهدي من الله في سيرته الدعوية للناس إلى دين الله؛ فكان تصحيح المعتقد أولاً وتوحيد الله فيما هو الله قبل العمل. وقد رُسمت هذه المنهجية في الكتاب الذي أنزله الله لعباده وختم به رسالاته وأورثه من اصطفاه من عباده؛ فكان أول نداء وأمر للناس في القرآن بحسب ترتيب آي المصحف الكريم الأمر بعبادة الله وتوحيده ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١] قال ابن عباس رضي الله عنه: (اعبدوا ربكم: وحدوا ربكم)^(١)؛ فالعقيدة أولاً، ومصدرها مقدم على غيره.

إن مصدر الاعتقاد السليم والعمل الصحيح كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فهما أصلاً الدين ومرجعيته؛ فمنهما تؤخذ العقيدة والشريعة وهما معيار الحقيقة، وذلك مقتضى الشرع والعقل وبيان ذلك:

أولاً: قول الله عز وجل في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، روى ابن جرير الطبري بسنده عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسيرها قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة^(٢). وفي حديث معاذ رضي الله عنه المشهور الذي أخرج أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم لما أرسله النبي ﷺ إلى اليمن وقال له: (بم تحكم؟) قال: بكتاب الله تعالى، قال: (فإن لم تجد؟) قال: بسنة رسول الله ﷺ، قال: (فإن لم تجد؟) قال: أجتهد رأيي، فضرب في صدره وقال: (الحمد لله الذي وفق رسول الله ﷺ لما يرضي رسول الله ﷺ)^(٣)، (وهذا يعني أنه آخر رأيه ونظره

(١) - الطبري، جامع البيان في تأويل القرآن، الطبعة الأولى ٢٠٠٠ مؤسسة الرسالة ١/٣٦٢

(٢) - ابن جرير، مرجع سابق ٢٢/٢٧٢

(٣) - الإمام أحمد، المسند، الطبعة الأولى ٢٠٠١ بيروت مؤسسة الرسالة ٣٦/٣٣٣ حديث رقم ٢٢٠٠٧. وهو حديث يضعفه بعض أهل الصنعة في الحديث بسبب جهالة أصحاب معاذ رضي الله عنه، ويصححه بعض العلماء كأبي بكر بن العربي والخطيب البغدادي وابن القيم وغيرهم. انظر حكم محقق المسند وتعليقه على الحديث.

واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة، ولو قدمه لكان تقدماً بين يدي الله ورسوله^(١)، وإذا كان هذا في الفقه العملي ففيما يتعلق بالعقيدة والإيمان أولى.

ثانياً: روى البخاري ومسلم في صحيحهما بسنديهما عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: يا أيها الناس اتهموا رأيكم على دينكم^(٢). وروى الطبراني في المعجم الكبير عن ابن عمر رضي الله عنهما أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: يا أيها الناس اتهموا الرأي على الدين^(٣).

والرأي المذموم الذي حذر منه هذان الصحابيَّان الجليلان هو المخالف للكتاب والسنة، أو المقحم في ما لا دخل للرأي فيه من علم الغيب، أو الذي يعارض به نص صحيح صريح^(٤).

وهذه القاعدة العلمية في الاتباع جاءت بعد تجربة مر به الصحابة رضي الله عنهم كانت من المحكَّات التربوية في حياة الأمة، وذلك فيما صالح عليه النبي صلى الله عليه وسلم فريشاً في صلح الحديبية، وتضمنين الصلح شروطاً في ظاهرها من صالح قريش إذا ما أخذت بالرأي وبادي العقل، وقد كانت هيبة الرسول صلى الله عليه وسلم هي التي منعت سهل بن حنيف رضي الله عنه أن يراجع الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، وكان قرب عمر رضي الله عنه من النبي صلى الله عليه وسلم أدى به إلى مراجعته في بعضها وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يرد عليه بالتسليم لله في الأمر وصدق الثقة بالله تعالى فكان يقول له: (إني رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرني)^(٥)، وقد ينتهر عمر أحياناً فيقول له: (تراني أرضى وتأبى أنت؟)^(٦) فيرضى رضي الله عنه ويسلم. فلما نزلت (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) دعى الرسول صلى الله عليه وسلم عمر رضي الله عنه فقرأها عليه فقال يا رسول الله: أفتح هو؟ قال (نعم)^(٧). وكان كما قال الله ورسوله فتحاً مبيناً؛ إذ تفرغ الرسول صلى الله عليه وسلم من قريش وامتدت دعوته إلى أطراف الجزيرة وخارجها. وفي هذا الموقف وأمثاله تبرز منهجية أبي بكر رضي الله عنه في الاتباع والتسليم المطلق حتى استحق لقب الصديق، وكان يحث عمر رضي الله عنه على لزوم المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وأن يسعه ما وسعه^(٨).

(١) - الزحيلي. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. الطبعة الثانية ١٤١٨ هـ دمشق دار الفكر المعاصر ٢٦/٢١٩

(٢) - البخاري. صحيح البخاري، مرجع سابق، ٩/١٠٠٠ حديث رقم ٧٣٠٨. ومسلم. صحيح مسلم، الطبعة بدون السنة بدون بيروت دار إحياء التراث العربي ٣/١٤١٣ حديث رقم ١٧٨٥

(٣) - الطبراني. المعجم الكبير. الطبعة الثانية السنة بدون القاهرة مكتبة ابن تيمية ١/٧٢ حديث رقم ٨٢

(٤) - انظر: ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح الباري، الطبعة الأولى ١٤٠٧ - ١٩٨٧ القاهرة دار الريان للتراث ١٣/٣٠٢ - ٣٠٣ شرح الحديث رقم ٧٣٠٨

(٥) - البخاري. مرجع سابق الحديث رقم ٢٧٣١

(٦) - الطبراني. مرجع سابق ١/٧٢ حديث رقم ٨٢

(٧) - الطبراني المرجع السابق ٦/٩٠ حديث رقم ٥٦٠٤

(٨) - انظر الحديث بطوله في صحيح البخاري مرجع سابق ٣/١٩٣ حديث رقم: ٢٧٣١.

ثالثاً: قال الله تعالى حكاية عن المشركين والكافرين يوم القيامة عندما يأتي تأويل القرآن فيما وعد الله فيه وعندما تظهر الحقيقة ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [المك: ١٠] فلم يسلم لهم السمع (الوحي) لأنهم أعرضوا عنه، ولم يكن الذي عارضوا به الوحي في الدنيا عقل صحيح؛ بل كان في الحقيقة الرأي أو الظن ﴿وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [النجم: ٢٨]. وصدق الله عندما وصف موقفهم مما أخبر به في كتابه الذي أنزله بعلمه وقدموا عليه ما يترأى لهم أنه عقل بقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس: ٣٩]، فلم يبلغوا العلم الحقيقي، ولم يبلغهم تأويله؛ فلم يسلم لهم عقل ولا نقل، ولو سلّموا للنقل سلم لهم العقل.

رابعاً: الأمة التي تنتسب إلى الله لا بد أن تأخذ من الله وتتجه إليه، وقد كان الصحابة والتابعون والتابعون لهم بإحسان من أئمة المسلمين وعامتهم هذا منهجهم أخذ الدين ابتداء من نصوص الكتاب والسنة والبناء عليهما.

خامساً: إن من آمن بالله في ربوبيته وملكه، ووحده تعالى في إلهيته، وأيقن بتفرده تعالى في أسمائه الحسنى، وإن له الخلق والأمر: الأمر الكوني الذي أسلم له الوجود، والأمر الشرعي الذي يجب أن يسلم له الإنسان المكلف بالاستجابة المبنية على ما أعطي من الإرادة لا بد له من أن يتلقى كل أمر صادر عن الله تعالى بالرضا والقبول والتنفيذ، ولا يقدم عليه رأياً ولا غيره ولا يقترح عليه؛ لأنه من الله ذو الألوهية على خلقه أجمعين.

سادساً: من جعل القرآن والسنة إمامه وقوام صلاح حاله في الدنيا والآخرة لم يكن له أن يتقدم عليهما؛ إذ إن ما كان إماماً فحقه أن يقدم ويتابع، وقد وصف الله كتابه الذي أنزله على موسى ﷺ بقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ قَبْلَهُ كِتَابٌ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ [هود: ١٧] وذم الذين نبذوه وراء ظهورهم لما جاءهم الرسول ﷺ بالحق الذي يصدق ما جاء به موسى ﷻ واتبعوا ما تتلوا الشياطين؛ فاستبدلوا الذي هو أدنى بالذي هو خير فضلوا عن الصراط المستقيم.

سابعاً: إن العقل إذا ثبت عنده نبوة النبي وصدق رسالته لزمه أن يصدق بكل ما يأتي به؛ لأنه إذا ثبت عنده الأصل لزمه الإيمان بالفرع، فالفرع تابع لأصله ونابع منه، فإذا انعقد الإيمان بنبوة النبي ﷺ وقامت الحجة بصدق رسالته من الله لم يبق إلا التصديق بكل ما جاء به والانقياد له.

ثامناً: ليس هناك بعد الأنبياء إنسان معصوم، ولكن هناك منهجاً معصوماً، وإذا كان النبي ﷺ معصوماً فإن المنهج الذي يبلغه معصوم أيضاً، ومن منهجه اتباع ما أوحى الله إليه ﴿قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

تاسعاً: الحقيقة أن العقل لا يتعارض مع النقل أبداً؛ فالعقل الصحيح لا يتعارض مع النقل الصحيح الصريح لما يلي:

١- إذا بدا أن ثمت تعارض وظهر ما يوهم بذلك قدم النقل بدليل العقل على الشهادة بصدق أصله، فالعقل يشهد بتقديم النقل وبيانه في التالي.

٢- الجمع بين المدلولين جمع بين النقيضين، ورفعهما رفع للنقيضين، وهذا ممتنع عقلاً؛ فيقدم النقل لأن العقل يقتضي تقديمه لتسليمه له ابتداءً بصدق مصدره وثبوت نبوة النبي ﷺ، ولو قدم العقل على النقل لكان قدحاً في العقل، وكان إبطال النقل إبطالاً لدلالة العقل، وإذا أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل، لأن ما ليس بدليل لا يصلح لمعارضة شيء من الأشياء، فكان دليل العقل موجباً عدم تقديمه، فلا يجوز تقديمه^(١) ليسلم لنا الدليل على الحقيقة وتسلم لنا دلالته.

٣- أن الوحي لا يأتي بمستحيل عقلاً، ولكنه يأتي بما يختار فيه العقل فيدله على الحق فيه؛ لأن إحاطة العقل بالعلم محددة وتؤثر في أحكامه المعطيات والمشبهات فتشوش عليه، وإحاطة الوحي بالعلم مطلقة وسالم من المؤثرات؛ فاقتضى العقل أن يقدم السالم على المدخول.

٤- التعارض المزعوم بين النقل وما يسمى عقلاً تعارض بين الحقيقة والظن لقول الله تعالى: ﴿وَمَثَّ كَلِمَتٌ رَّبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ وَإِنْ تُطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ [الأنعام ١١٥-١١٦]، وقوله تعالى ﴿وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [يونس: ٣٦] فيقدم الحق على الظن لنهي الوحي عن اتباع الظن في مقابلة الحق، وهذا مقتضى الشرع والعقل وبيانه في التالي:

٥- إذا بدا تعارض بين نقلي وعقلي فإما أن يكونا قطعيين فلا يتعارضان في الحقيقة وقد تقدم بيان ذلك، وإما أن يكونا ظنيين فيقدم منهما الراجح، وإما أن يكون أحدهما قطعياً والآخر ظنياً فيقدم القطعي مطلقاً^(٢).

عاشراً: إذا نظرنا إلى تاريخ تقديم الرأي على النص وجدناه بدأ من عدو الإنسان؛ وذلك أن أول من قدم رأيه على النص القطعي الثبوت قطعي الدلالة هو إبليس عندما اعترض على السجود لآدم وخالف الأمر الشرعي وعلل تلك المخالفة (بقياس عقلي مركب من مقدمتين حمليتين:

إحداهما: قوله ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ فهذه هي الصغرى، والكبرى محذوفة تقديرها والفاضل لا يسجد للمفضول، وذكر مستند المقدمة الأولى وهو أيضاً قياس حملي حذف إحدى مقدمتيه فقال ﴿حَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ

(١)- ابن تيمية، درء تعارض العقل والنقل، الطبعة الثانية ١٩٩١ الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١/١٧٠. وانظر:

أبا العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، الطبعة العاشرة ١٩٩٧ بيروت مؤسسة الرسالة ١/٢٢٧.

(٢)- انظر ابن تيمية درء العقل والنقل مرجع سابق ١/٨٦

طين^(١). والمقدمة الثانية كأنها معلومة أي ومن خلق من نار أفضل ممن خلق من طين، فهما قياسان متداخلان، وهذه يسميها المنطقيون الأقيسة المتداخلة، فالقياس الأول هكذا أنا خير منه وخير المخلوقين لا يسجد لمن هو دونه، وهذا من الشكل الأول، والقياس الثاني هكذا: خلقتني من نار وخلقته من طين، والمخلوق من النار خير من المخلوق من الطين، فنتيجة هذا القياس العقلي أنا خير منه، ونتيجة الأول ولا ينبغي لي أن أسجد له^(١). وهذا القياس المنطقي في صورته وشكله خطأ في أصله ومجاله ومبناه الذي نشأ من تصورات عنده، وما يظهر له من فضله وخيريته على آدم من بواعث نفسية وهمية غرته؛ فعارض برأيه ما حقه الامتثال والانقياد من الأمر الإلهي الشرعي الذي وجهه الله له؛ الله الذي يقضي بالحق وله الألوهية على خلقه أجمعين؛ فسار الكون بأمره الكوني واستجاب له لأنه الله، وابتلي المكلف بالأمر الشرعي ليستجيب باختياره ويمتثل أمر ربه ويتأله الله بطاعته وامتثال أمره؛ فيسير في خط مواز لنظام الخلق المنفعل بالأمر الكوني في تأله الجميع لله ذو الألوهية على خلقه. ثم على أي أساس بنى إبليس الخيرية؟! إن الكل خلق الله، والله يخلق ما يشاء ويختار. لكنه الصراع القادم بين الحق والشبهات.

إن هذا الذي نقره ليس المقصود من التحجير على العقل، فالعقل كرم الله به الإنسان وكلفه به، ولكن المقصود احترام العقل وأن لا يعدو قدره، ولا يضل طريقه، فيستثمر في مجالاته، ويُسلم لمن أحاط بكل شيء علماً ولا ينازعه في علمه، وعلى هذا سار أئمة الهدى في هذه الأمة فاستثمروا العقل في الاجتهاد في المسائل العملية وأثروا المكتبة الإسلامية بالفقه وأصوله وقواعده والعلوم النافعة وأثمرت عملاً وجعل العقل فاعلاً إيجابياً، ووقفوا به عند الغيبيات فيما جاء به الوحي فسلم لهم المنهج وأثمر. وهذا ما صار إليه تمحيص الفلسفة عند النقاد كابن خلدون وغيره من الغربيين الذين فصلوا العلوم التجريبية والقائمة على الاستقراء والملاحظة عن مواضيع الفلسفة الأخرى؛ فليس كل ما يتوصل إليه الإنسان بفكره حقاً مسلماً لا يقبل النقاش والاستدراك عليه.

وقد اتسم منهج ابن خلدون في نقد الفلسفة بميزتين:

أولاهما: أنه لم يقبل الفلسفة في الإلهيات، ووقف منها موقف المعارض، واعتبارها فيما عدا ذلك من العلم القائم على الظن القابلة للنقاش والقبول والرفض، إلا ما كان منها قائماً على منهج صحيح ينتج الحقيقة كالتجربة والعلوم الرياضية.

والأخرى: فصل العلم التجريبي عن الفلسفة، حتى عُدد ابن خلدون من أصحاب المنهج العلمي أكثر من كونه فيلسوفاً، فهو ينزع إلى التفكير التجريبي، فيختبر الحقائق، ويحقق النتائج، وعلى هذا المنهج نقد التاريخ وبنى مقدمته.

(١) - ابن القيم، الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعطلة، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ الرياض دار العاصمة ٣/٩٩٨

بهذا تمايزت مواضيع الفلسفة وخرجت العلوم الرياضيّة والفيزيائية وغيرها من القائمة على التجربة والملاحظة والاستقراء من اختصاص الفلسفة وتحررت منها. والذي جعل هذه العلوم تخرج من الفلسفة أنها وجدت مرجعيتها التي يمكن أن يتحاكم إليها من اختلف فيها بما يقطع الشك باليقين، وبقيت الفلسفة الميتافيزيقية تفتقد المرجعية المعصومة، أو بالأحرى لم تسلّم لها في أهم جوانبها، ولو سلمت للمرجعية المعصومة من الخطأ في الخبر بما لا يقع تحت الحس مع القدرة البشرية على اعتقاد ذلك وتصديقه؛ لأنه ليس من محالات العقول بل مما تختار فيه العقول، لسلمت من التيه في الظن، وبلغت احترام العقل وما بلغت في تقديسه، ووضعت الأمور في نصابها وتحقق العدل القائم على وضع الشيء في موضعه المناسب والرجوع بالشيء إلى مصدره الأساسي^(١).

وبهذا يتبين أن الإسلام مصدر العلم والحكمة، ودين العقل الصحيح والرحمة.

المبحث الثاني: المنهج السلوكي في سورة الحجرات.

المطلب الأول: التثبت في قبول الأخبار ونقلها.

من معالم السورة التي عنيت بتربية المسلم في مجتمع يتصف بالعدل والحكمة وتحقيق المصلحة ودرء المفسدة التثبت في نقل الأخبار وتلقيها. وفي عالم تتصارع فيه الأفكار، وتتوسع فيه مجالات التواصل الاجتماعي؛ فأصبح الخبر يبلغ الآفاق في سرعة تسبق ما ينتهي إليه الصوت المباشر، وتتخطى الحواجز وتمتد إلى أقصى الأرض في سرعة فائقة وتنقل معها الحق والباطل، يتأكد الالتزام بمنهج الإسلام في التعامل مع الأخبار بعقلية ناقدة.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾

[الحجرات: ٦]

في هذه الآية متلقي، وناقل، وخبر، ومسؤولية تترتب على قبول الخبر. فالمتلقي لا بد أن يكون واعياً مثبثاً فيما يقبل، والناقل لا بد أن يكون متحرياً فيما ينقل، وإلا فهو خارج عن المنهج الذي كلفه بمسؤولية الكلمة التي قد يترتب عليها ظلم لآخرين.

إن من سمات هذا الدين الصدق والحق والعدل في القول والعمل؛ ولذلك كانت الكلمة فيه مسؤولية، وتتأكد المسؤولية عنها إذا تعلق بها حقوق مادية أو معنوية للآخرين، ومما أمر الله به المؤمنين ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ [الأنعام

(١) - انظر: الجعيدي، إضاءة في قضايا الفكر ومناهج التفكير، مجلة فكر الثقافية العدد ١٤ فبراير - أبريل ٢٠١٦ ص ٥٤.

الآية: ١٥٢] قال ابن زيد^(١): قولوا الحق^(٢). وقال الشوكاني: (إذا قلت بقل في خبر أو شهادة أو جرح أو تعديل فاعدلوا فيه، وتحروا الصواب، ولا تتعصبوا.. فإن ذلك من العدل الذي أمر الله به)^(٣). وضابط العدل في القول أن لا يكون على قائله تحمل تبعته ومسؤوليته عاجلاً أو آجلاً^(٤)، فهذه مسؤولية الناقل الصدق فيما يقول أو ينقل، ومسؤولية المتلقي التحري في قبول ما يُنقل إليه وبخاصة إذا كان الناقل مما يتهم في نقله، وذلك عندما يكون المنقول المخبر به يترتب عليه تبعه، ولهذا سمي الخبر المنقول في الآية نبأ، والنبأ الخبر الذي يكون له شأن، والتبين التحري والتثبت للكشف عن حقيقته^(٥)، والحقيقة تطلب لذاتها؛ لذلك أمر الله بتبين الأخبار في التثبت عنها عندما يشك في مصدرها ولم يأمر بردها لمجرد ناقلها، ولكن لما كان حال الناقل وخلفيته السلوكية ومنطلقاته الفكرية وما يعرف من ظاهر حاله مؤشراً على قلة مراعاته لمسؤولية الكلمة، أو يظهر منه أنه يقدم مصالحه وهوى نفسه على قول الحقيقية والصدق اعتبر نقله متهماً حتى تثبت براءته.

وهذا منهج تعقل في التعامل مع الأخبار في مجتمع مؤمن واعٍ لا تروج عليه الشائعات، ولا مكان لها بين أفرادها وجماعاته؛ فلا مجال للمرجفين والمفسدين؛ فالمؤمنون أصبحوا يقيمون تصرفاتهم على علم وردود أفعالهم على الحكمة والتأني والتثبت أو كذلك ينبغي أن يكونوا؛ فلا تُخرق الأمة ولا تتبع كل ناعق، وعلى هذا ربي القرآن الصحابة في مواضع من القرآن ليكون منهجاً لهم ولمن سار على نهجهم بإحسان، وفيما يلي بيان ذلك:

١- أرشد الله المؤمنين إلى التثبت في تلقي الأخبار بتبينها في قوله تعالى في هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ [الحجرات: ٦] والتبين هو قوة الإبانة، واستبيان الأمر واستظهاره واستجلاؤه بحسب أهميته وخطورته^(٦)، (وتنكير فاسق ونبأ، في سياق الشرط يفيد العموم في الفساق بأي فسق اتصفوا، وفي الأنباء كيف كانت، كأنه قيل: أي فاسق جاءكم بأي نبأ فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشافه)^(٧). وفي الآية الأمر بالتبين والتثبت، والأمر يقتضي الوجوب؛ فوجب على المؤمنين

(١) - هو عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه صالح في نفسه ضعيف في الحديث، ضعفه ابن معين وأحمد بن حنبل وعلي بن المديني، والنسائي. مات سنة ٨٢ هـ. ذكره: البخاري، محمد بن إسماعيل، في التاريخ الكبير، بيروت دار الكتب العلمية ٢٨٤/٥ ترجمة رقم ٩٢٢. وابن أبي حاتم، في الجرح والتعديل، بيروت دارالكتب العلمية ٢٣٣/٥ ترجمة رقم ١١٠٧. والمزي، في تهذيب الكمال، ١٩٩٢ م بيروت مؤسسة الرسالة ١١٤/١٧ ترجمة رقم ٣٨٢٠.

(٢) - الطبري، مرجع سابق ٢٢٨/١٢.

(٣) - الشوكاني، محمد بن علي، فتح القدير، الطبعة الأولى ١٤١٤ هـ دمشق- بيروت دار ابن كثير ودار الكلم الطيب ٢٠٢/٢

(٤) - السلمي، حقائق التفسير، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م بيروت، دارالكتب العلمية ٢١٦/١

(٥) - انظر ابن القيم، مدارج السالكين، الطبعة الثالثة ١٩٩٦ بيروت دار الكتاب العربي ٣٦٨/١

(٦) - انظر ابن عاشور التحرير والتنوير الطبعة بدون، ١٩٨٤ تونس الدرا التونسية ٢٣١/٢٦

(٧) - المرجع السابق ٢٣١/٢٦

الاحتراز من قول ونقل كل ظنين، وطلب الثبات فيه وهو الصدق. وهذا التثبت والتحري وتبيين الأمر ودوافعه معلل بمصلحة الأمة وأن لا تقع في الجهالة والانحراف عن منهج الله؛ فتقع فيما لا تحمد عقباه، وما يصيبها منه من الندامة والعنت والمشقة بسبب الجهل سواء كان بعدم العلم أو قلة الحلم؛ فيجعل المؤمن بين المثير والاستجابة مساحة للتفكير يتحرى فيها صدق الخبر ليحصل العلم ويتحلى فيها بالحلم والتروي لإصدار القرار الصائب. وهذا عقل في الفكر والسلوك.

٢- عاتب الله المؤمنين في سورة النور على ما بدا من بعضهم في تلقي حديث الإفك^(١) الذي أشاعه المنافقون عن عائشة رضي الله عنها ونقله من دون ترو في ذلك، ومن دون تمحيص وتحقيق، ومن دون رجوع لقيم هذا الدين الجديد الذي جاء ليرفع مستوى التفكير ومستوى التعامل مع الأحداث بعقلية ناقدة؛ فالأصل براءة الذمة والأصل حسن الظن بالمؤمن، واللسان مسؤولة، والبيئة على المدعي، وغيرها من الضوابط والقيم التي تصنع المجتمع الإنساني في أحسن تقويم وتربيه على العقل التفكير الناقد ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا، وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ هذا ضبط للكلمة، وتحليل قبل أن تقبل وتنقل. ﴿لَوْلَا جَاءَ عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ هذا مطالبة بالبيئة والتثبت من صدق الكلمة قبل أن تنشر، ولكن كان الواقع المخالف لمنهج الحكمة في هذا الدين أن منكم من يشيعه بين مغرض تولى كبره وسماع له لا يدرك خطورة ما ينقله، ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ .. لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا ترو ولا فحص ولا إنعام نظر. حتى لكأن القول لا يمر على الأذان، ولا تتملاه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب! «وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ» .. بأفواهكم لا بوعيككم ولا بعقلكم ولا بقلبيكم. إنما هي كلمات تقذف بها الأفواه، قبل أن تستقر في المدارك، وقبل أن تتلقاها العقول^(٢)، ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ حسب للإشاعة المغرضة أو المريية أو ما ليس للإنسان به علم ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٦] قال القاسمي: (نوعان محرمان: القول بالباطل، والقول بلا علم)^(٣).

٣- ذم الله السماعين في قوله تعالى ﴿لَوْ حَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ هُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٧] سماعون للمغرضين المتربصين بالمؤمنين الذين يقبلون ما يقولون والطائعون لهم في نشر إرجافهم وما يفرق الصف المؤمن بوعي أو بغير وعي لضعف عقولهم أو لأن عقولهم مدخولة وإرادتهم مختزفة، أو هم المتعاونون مع أعداء الإسلام عيون لهم ينقلون للأعداء أخبار المسلمين، وكلا التفسيرين للسماعين يدل عليه سياق الآية التي جاء فيها هذا الذم لهم؛ فهناك مؤامرة تحاك للمجتمع المسلم أو الأمة المسلمة تتبغى الفتنة لها والوقوع بها، وعلى كلا الحالين يجب أن يكون المجتمع المسلم مجتمعاً واعياً لا يقبل ولا ينقل من غير

(١) - الإفك: قلب الشيء عن وجهه، وهو أسوأ الكذب وأقبحه.

(٢) - سيد قطب، مرجع سابق ٢٥٠٢/٤

(٣) - القاسمي، محاسن التأويل، الطبعة الأولى ١٤١٨ بيروت دار الكتب العلمية ٣٥١/٧

إدراك لعواقب الأمور وإدراك المقاصد والنظر في مآلات الأقوال والعواقب قال ابن القيم: (فلا يزال المنافقون في الأرض، ولا يزال في المؤمنين سماعون لهم؛ لجهلهم بحقيقة أمرهم وعدم معرفتهم بغور كلامهم)^(١).

٤ - نبه الله المؤمنين على خطورة الاستبداد بالرأي والتصرف الفردي وإعجاب كل ذي رأي برأية في قضايا الأمة وأرشدهم إلى المنهجية السليمة في التعامل مع الأحداث التي تؤثر فيها ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدَّعَوْا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣] أذاعوا به: (أفشوه وأظهوره وتحدثوا به قبل أن يقفوا على حقيقته)^(٢)، إلا قليلاً منهم يلتزمون المنهج الشرعي في التعامل الصحيح مع الأحداث فضل من الله عليهم وتوفيق لهم، وهؤلاء المهتدون ممدوحون على تعقلهم، وأولئك منبهون على تعجلهم في عدم رد الأمر لأهله في الأمة، ومذمومون على مخالفتهم المنهج الصحيح. وهذا نظام يحافظ على وحدة الأمة ويظهر تماسكها وعقلها للأمور وصدورها عن قرار صائب في مواجهة ما يهددها أو ينفعها إذ يرد الأمر إلى أهل الاختصاص والنظر والرأي من العلماء المعينين والقيادات المكلفة بشأن الأمة الذين يسبرون أغوار الأمور والنظر في العواقب والتحري من صدق الدعاوى وخطورة الأمر ونفعه أو ضره. وفي قوله تعالى ﴿لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ عمق الاختصاص وأهميته، وأهمية وجود العقلاء والعلماء والخبراء في الأمة، وأهمية التعقل في تدبر الأمور وتديبرها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، والوسائل لها أحكام الغايات؛ فإذا كان وجود المختصين والعقلاء والعلماء وأهل القدرة على الاستنباط وفقه الأمور واجب؛ فإعدادهم واجب، ويجب الرد إليهم. والآية فيها أمران: المسؤولية المجتمعية، والحاجة للعقل الجمعي؛ فالمجتمع المسلم مسؤول في التعامل مع الأحداث المصيرية بأن لا يتعجل فيها، وبخاصة ما يأتيه من الخارج والتي عادة لا يدرك أبعادها ولا أهدافها ومقاصدها، وعليه أن يرد الأمر لمن يستنبطونه والذي عبرت الآية عنهم بعقل جمعي ليس رأي واحد بل جمع من أهل الدراية والعلم والخبرة والاختصاص عندهم القدرة على الاستنباط ووضع الأمور في مكانها الصحيح لينعم المجتمع المسلم، ويحافظ على مقوماته، ويتعامل مع الأحداث بوعي.

المطلب الثاني: الالتزام بمقتضى الأخوة ومتطلباتها.

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٣) [الحجرات: ١٠] هذا هو الأصل في الأمة المسلمة الأخوة التي عقدها الله، وهي أخوة يلزم منها التعاون والنصرة والمحبة والمودة والموالات وترك مضارهم والقيام بالعدل بينهم. وقد أكدت هذه الأخوة كثير

(١) - ابن القيم، الصواعق المرسله في الرد على الجهمية والمعتلة، مرجع سابق ١٤٠٥/٤

(٢) - القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، الطبعة الأولى ١٩٨٨ بيروت دار الكتب العلمية ١٨٨/٥

(٣) - هذه الآية العاشرة في سورة الحجرات، سورة الآداب والعقل، تقع في منتصف السورة تقريباً؛ فقبلها تسع آيات، وبعدها ثمان آيات، وقبلها ثلاث نداءات، وبعدها ثلاث نداءات، لكن النداء الأخير للناس عامة بما يقرر أصلهم في المنشأ من ذكر وأثنى واختلاف مسمياتهم للتعريف بينهم، وباب الأخوة مفتوح لهم فمن دخل في الإسلام دخل فيها. آية في وسط السورة تقرر حقيقة العلاقة بين أفراد هذه الأمة الوسطية في فكرها وسلوكها، وقد تضمنت السورة في نداءاتها وتوجيهاتها مناهج وقواعد

من الأحاديث النبوية الشريفة التي جعلتها الرابطة في المجتمع المسلم المتماسك الذي يشد بعضه بعضاً، والذي إذا اشتكى منه عضو تداعت له جميع الأعضاء وسمع ألمه فيها بإحساس متأثر بحاله ومتجاوب معه في ألمه.

إن الإيمان يوجب التآلف ولا إله إلا الله هي الرابطة الجوهرية الحقيقية، لا تفرق من جمعته الأعراض المتغيرة والمتغيره، ولا تكون سبباً في الاختلاف والتفرقة؛ فهي رابطة حقيقية تجمع المتفرق، وتؤلف المختلف. وإذا نظرنا إلى سياق الآيات التي جاءت فيه هذه الآية وذكرت فيها هذه الرابطة الإيمانية نجد أنها جاءت تعليلاً وتقريباً لما يجب أن يقوم به المجتمع المسلم من حل النزاع والإصلاح بين المتخاصمين من المسلمين ورأب الصدع وحسم مادة الشر ولو أدى ذلك إلى تأديب الباغي النافر من العود إلى هذه الرابطة بالقوة؛ لأن المؤمنين أخوة، ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا﴾ إنه العقل المجتمعي القائم على الأخوة والرابطة الإسلامية لا ينحاز إلى إحدى الطائفتين في مواجهة الأخرى، بل لا بد أن يكون طرفاً ثالثاً عاقلاً واعياً يقوم بالإصلاح بينهما ويحكم بالعدل ويبيّن الخطأ ويدرأ الشر عنهما ﴿فَإِنْ بَعَثَ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْآخَرَى فَقَاتِلَا أَلَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنَّ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

إن مما يبين أهمية هذه الرابطة واستحضارها وأنها قطب يدور حوله المجتمع المسلم والأمة المسلمة ويجمعها أن القرآن يؤكد على الأخوة ويستصحبها مع وجود البغي وهو نوع من الفسق، فلم يكن هذا العارض ليقطع هذه الرابطة، أو يقضي عليها؛ فهي رابطة باقية ولا بد أن تستحضر ويرد المخل بمقتضاياتها إليها بالحكمة والرحمة والعدل والمجادلة بالتي هي أحسن لدرء المفسدة وتحقيق المصلحة.

إن اجترار الخلاف الذي يمزق وحدة الأخوة الإسلامية ضعف في العقل المنهجي والفقهاء الشرعي، وإضعاف للأمة في مواجهة التحديات التي تجد به نفوذها فيهم ومرتعاً خصباً لزيادة الشقة والفرقة؛ فعندما تخلّ الأمة بمقتضيات رابطة الأخوة واستحضارها واستصحابها والعود إليها تفقد القوة التي تعينها على النهوض في مواجهة التحديات. لقد عني القرآن بالتأكيد على هذه الرابطة واعتبرها أصلاً وما يفوت فيها استثناء وعارضاً يجب أن لا يطول فضلاً عن أن يدوم، وفيما يلي بيان ذلك:

١- تقرير مبدأ الأخوة وتأكيدُه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ قال الطاهر ابن عاشور: (وهذه الآية فيها دلالة قوية على تقرر وجوب الأخوة بين المسلمين؛ لأن شأن إنما أن تجيء الخبر لا يجمله المخاطب ولا يدفع صحته، أو لما ينزل منزلة ذلك)^(١). ومن فقه ابن عاشور وعنايته بالمقاصد أن بين أن عدول القرآن عن قول أصلحو بين الطائفتين أو أصلحو بينهما إلى قوله تعالى ﴿فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ ليس من وضع الظاهر موضع المضمّر كما يقول بعض

وأصول هذه الأمة؛ لتبقى على الصراط المستقيم في المكان اللائق بما بين الأمم، يبرز في فكرها وسلوكها حقيقة الإنسان الصحيح لتكون شهيدة على الناس بما كانت أمة وسطاً.

(١) - ابن عاشور، مرجع سابق ٢٤٣/٢٦

=

المفسرين^(١)، بل هو وصف جديد نشأ عن تقرير حقيقة الأخوة في أول الآية، وإطلاق مفهوم الأخوة على الطائفتين والتأكيد عليه فيه التنبيه لوجوب استصحابها؛ فالأمر الطارئ المتنافي مع حقيقتها يجب أن لا يقطع هذه الصلة، وليلز بسرعة^(٢)؛ فالأخوة علة موجبة للإصلاح بينهم.

٢- ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]

لقد كنتم أعداء تفرقكم عصبية تافهة بعيدة عن حقيقة ما خلق الإنسان له من عبادة الله وعمارة الأرض، وتتسبب في قتل بعضكم بعضاً، فأتاكم الله بهذا الإسلام الجامع لكم على أعظم المبادئ وأرقاها تصل الأرض بالسماء وتمتد أفقاً في الأرض لنشر الخير والقيم العليا؛ فصرتم بهذه النعمة أمة تربط بينها الأخوة.

ذكر الله هذه النعمة نعمة الأخوة وهذه المنة على الأمة بعد أن أمرها بالاعتصام بحبله والاجتماع عليه (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران: ١٠٣-١٠٤]. إن الأخوة الإسلامية نعمة ورحمة يجب أن تدرأ بها النقمة والفرقة، فعلى الأمة أن تستفيد من تجارب السابقين ولا تكرر أخطاءهم التي كانوا عليها في الجاهلية، أو أخطاء أهل الكتب السابقة في المخالفة لكتب الله؛ فتقع فيما وقعوا فيه من التفرق والاختلاف بعد ظهور الحق وبيانه. والاختلاف المذموم هنا هو الاختلاف الهادم للاجتماع القاطع للأخوة المتسبب في البغي والفساد، لا الاختلاف البناء كالاختلاف في مسائل الاجتهاد في الأحكام العملية؛ فإن هذا يثري الفقه ويبين سعة الشريعة واستيعابها للحوادث مادام في إطارها ومستند إلى أدلتها، وهو اختلاف سائغ في كثير من الفروع كما أقر الرسول ﷺ اختلاف الصحابة ﷺ في فهم حديث (لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة)^(٣) حتى أصبح ذلك بياناً لمناهج الفقه الإسلامي فيما بعد. وكان الصحابة ﷺ يختلفون في أحكام النوازل ومع ذلك كانوا متآلفين.

٣- شرع الله القصاص في القتل العمد العدوان، وقتل النفس التي حرم الله بغير حق خروج عن أمر الله الشرعي وفسق، ولكن الله من فضله ورحمته شرع لهذه الأمة العفو عن القصاص وأخذ الدية ﴿فَمَنْ عَفَا غُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ فكما عقد الله بينكم الأخوة في دينه الذي ارتضاه لكم، وأتم عليكم به النعمة؛ فقد شرع لكم العفو عن القصاص وأخذ الدية مع تأكيد الآية على الأخوة واعتبار هذا الحادث طائئاً يمكن مجازات القاتل بالعدل أو الانتقال للفضل والعفو، وعلى الجاني مقابلة الإحسان

(١) - كما ذكر أبو السعود وغيره.

(٢) - ابن عاشور، مرجع سابق ٢٤٥/٢٦

(٣) - البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق ١١٢/٥ حديث رقم: ٤١١٩.

بالإحسان في الدية ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ وهذه الرحمة امتداد لأصل هذه الدين ورسالته ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

وإذا تأملنا هذه المواضع التي ذكرت فيها الأخوة فإننا سنلاحظ اقتران الأخوة بالرحمة أو آثارها: ففي آية الحجرات ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الحجرات: ١٠] وفي آية العفو عن القصاص ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبِعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾، وفي آية آل عمران ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ والنعمة من آثار الرحمة، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ففي خاتمة الآية ما يشير إلى أن رابطة الأخوة في هذا الدين رحمة؛ فالأخوة التي من لوازمها الجماعة والوحدة رحمة والفرقة عذاب^(١).

٤- تضمنت سورة الحجرات بيان بعض لوازم الأخوة التي ترفع مستوى العقل السلوكي والفكري في المجتمع المسلم ومنها:

● النهي عن السخرية من بعضهم بأي نوع من أنواع السخرية وهي الاستهزاء التي تنشأ عادة من رؤية زيادة فضل عند الساخر على من هو دونه في نظره بدوافع نفسية من كبر واحتقار ونحوهما مع جهله بحقيقة من يستحق الفضل؛ فعسى أن يكون المسخور منه أفضل من الساخر عند الله، أو سيؤول أمره إلى خير ويتحول الحال فيتفوق المسخور منه على الساخر. إن الاختلاف في القدرات والاستعدادات والمواهب والأعطيات الربانية الذهنية والعملية يجب أن تكون مجالاً للتكامل لا للتفاضل والتطاول، ولتتكافأ الفرص في المجتمع المسلم بها وتسهم في بنائه، ومجالاً لتكافل المجتمع المسلم وتعاضده ونشر الرحمة فيه.

● النهي عن اللمز والهمز والتنابز بالألقاب. واللمز هو الطعن والغض من الإنسان والعيب فيه، وعبء المجتمع المسلم بعضه بعضاً خلاف المطلوب من التناصح، وعبء بعضهم لبعض لازم لهم؛ فيلزم العائب عيب المعيب^(٢) وبخاصة عند من يتربص بهم، قال ابن جريري الطبري: (فجعل اللامز أخاه لامزاً نفسه؛ لأن المؤمنين كرجل واحد فيما يلزم بعضهم لبعض من تحسين أمره، وطلب صلاحه، ومحبتة الخير)^(٣). (ولاتنازوا بالألقاب) تنابز القوم إذا عيّر بعضهم بعضاً بما يُكره من ألقاب السوء أو بما يُعد ذماً للملقب، وهو من عادات الجاهلية التي تتنافى مع ما جاء به الإسلام من تكريم الإنسان واحترام آدميته، وفي هذا رفع من مستوى العقل وترفع عن سفاسف الأمور.

(١) - جاء في حديث رواه الإمام أحمد وغيره مرفوعاً (من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير، ومن لم يشكر الناس لم يشكر الله، والتحدث بنعمة الله شكر وتركها كفر، والجماعة رحمة والفرقة عذاب) وقال: الألباني في صحيح الترغيب والترهيب حسن

صحيح. الألباني، صحيح الترغيب والترهيب الطبعة الأولى ٢٠٠٠م الرياض مكتبة المعارف ٥٧٣/١ حديث رقم: ٩٧٦

(٢) - انظر: الزجاج معاني القرآن وإعرابه، الطبعة الأولى ١٩٨٨ بيروت دار عالم الكتب ٣٦/٥

(٣) - الطبري، مرجع سابق ٢٢/٢٩٨

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) إن من مقتضيات الإيمان الالتزام بهذه التوجيهات ولوازم الأخوة؛ فلا تخرجوا عليها أو عنها فبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان، وفي الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال النبي ﷺ: (سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر)^(١).

● الأمر باجتنباب كثير من الظن. الظن حالة فكرية ونفسية قلقة في منطقة رمادية تشتد ظلمة وبعداً عن الحقيقة عندما تقرب من الشك، وتشتد إشراقاً ووضوحاً عندما تقترب من اليقين؛ لذلك جاء في القرآن (اجتنبوا كثيراً من الظن) ولم يقل الظن كله، (إن بعض الظن إثم) عندما ينحدر نحو الوهم ويقع به الإنسان في الخطأ والظلم؛ فاحتياطاً للموضوعية في الحياة الاجتماعية جاء الأمر باجتنباب كثير من الظن وبخاصة الذي لا تعضده أمارات مرجحة أو ظاهر حال. (ولا تجسسوا) قال ابن جرير: (لا يتتبع بعضكم عورة بعض، ولا يبحث عن سرائره، يبتغي بذلك الظهور على عيوبه)^(٢) فرما ظهر له من حاله ما يسوؤه؛ فتنشأ عنده حالة من الكره أو الحقد وما يؤثر على علاقة الأخوة الإسلامية. أما إذا كان التجسس لمصلحة شرعية راجحة كحفظ أمن المجتمع فهذا جائز^(٣). (ولا يغتاب بعضكم بعضاً) الغيبة ذكرك أخاك بما يكره، وليس حاضراً ليكون له فرصة الدفاع والرد. وقد وصف القرآن هذا الخلق من المغتاب بأكل لحم الأخ ميتاً للتنفير والتحذير من الغيبة ومغبتها.

إن هذه الأخلاق التي حذر الله منها المجتمع القائم على الأخوة المقتضية التعاضد والتآزر والتناصح في هذه الآية والتي هي: اجتناب الظن والتجسس والغيبة متواليات يؤدي سابقها للاحقها أحياناً؛ فالظن بالسوء يدفع إلى التجسس والتأكد واستطلاع الأمر، والاطلاع على ما يخفيه المتجسس عليه لكرهيته ظهوره منه للآخرين قد يحمل المتجسس على ذكره في غيبته؛ فيقع منه الاعتباب، ويقع في عرض أخيه.

● (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا) [الحجرات: ١٣] هذا آخر نداء في هذه السورة وهو نداء باسم الناس عامة، وآخر نداء أيضاً باسم الناس عامة بحسب ترتيب آي المصحف، وقد تقدم معنا في هذا البحث أن أول نداء على الإطلاق وأول أمر بحسب ترتيب آي المصحف هو النداء للناس والأمر بالتوحيد، فدعوا إلى أن يوحدوا بهم ويدخلوا في الإسلام كافة. وفي هذا النداء الأخير للناس في سورة الحجرات تقرير الحقيقة التي يتساوون فيها جميعاً؛ فأصلهم واحد ومنشأهم واحد من ذكر وأنثى، ولأي انتسبوا فإن المقصود منه التعارف لا التفاجر، وبدخولهم في التوحيد دخول في الإسلام والأخوة؛ الأخوة التي كان عليها أصل البشر؛ فرجعوا بالاتفاق في الدين والاجتماع عليه والأخوة فيه إلى أصل النسب الذي يجمعهم أبناء آدم وزوجه اللذين كانا وولدهما على الإسلام والفترة؛ فهذه الأخوة الإسلامية هي الامتداد الحقيقي للإنسان والأصل فيه مادام على دين الله الذي ارتضاه لعباده، والكریم عند الله من اتقاه (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ). قال رسول الله

(١) - البخاري، صحيح البخاري مرجع سابق حديث رقم: ٧٠٧٦. مسلم صحيح مسلم، مرجع سابق، حديث رقم: ١١٦

(٢) - ابن جرير، مرجع سابق ٣٠٤/٢٢

(٣) - انظر: ابن عاشور، مرجع سابق ٢٥٤/٢٦

ﷺ في حجة الوداع التي أكد فيها على أصول حقوق الإنسان في الإسلام تأكيداً لهذا المبدأ: (يا أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمري على أسود، ولا أسود على أحمري، إلا بالتقوى)^(١). هذه هي الإنسانية الحقيقية ومناهجها الربانية.

(١) - الإمام أحمد، مسند الإمام أحمد، الطبعة الأولى ٢٠٠١ بيروت مؤسسة الرسالة ٤٧٤/٣٨ حديث رقم: ٢٣٤٨٩

الخاتمة

في خاتمة البحث نضع بعض أهم نتائجه والتوصيات فيما يلي:

أولاً: النتائج

- دلالات العقل في العربية واستعمالاته تبين أنه حجي ومنعة وكمال في التلقي والتصرفات.
- أصاب مفهوم العقل نزعات وتوجهات مختلفة أعطت كل منها العقل بعداً أبعد عن الحقيقة ومصادرها، بل أسقطته في أحيان كثيرة في نقيضه من الهوى.
- ليس كل ما يسميه الناس عقلاً يكون عقلاً في الحقيقة.
- ما ذم القرآن العقل أبداً، بل يطالب به فعلاً واقعاً، ويطالب بإعمال أدوات الوصول إليه من البرهان والحجة والنظر والتفكير والتدبر وغيرها، وبمقت من يعرض عنه تقليداً أو رضياً بالجهل وإيثاره عليه.
- العقيدة الإسلامية من مصادرها القطعية هي النتيجة الحتمية لما يمكن أن يتوصل إليه العقل لو أمكنه أن يحيط بكل شيء علماء، أو مُكّن من النتيجة النهائية التي يصل إليها قطعاً وبقيناً لو سار بمنهجية معصومة من الخطأ.
- لا يتعارض الدليلان القطعيان من النقل والعقل أبداً.
- ليس بعد النبي ﷺ بشر معصوم، ولكن هناك منهجاً معصوماً هو الذي سار عليه النبي ﷺ وعهد به إلى أصحابه ﷺ.
- عنيت سورة الحجرات بوضع المسلم على النهج الصحيح في العقل العقدي العلمي، والعقل السلوكي لضبط التصرفات والانفعالات.
- يجب أن يكون المسلم واعياً في تلقي الأخبار ونشرها، فهناك ضوابط للتعامل معها ووعيتها وتقدير المصلحة والمفسدة المترتبة عليها.
- الأخوة أصل في الإسلام والأصل في نشأة البشر؛ فقد كانت الأسرة الأولى على الإسلام والفترة. فالأخوة الإسلامية امتداد لأخوة البشر يدخل فيها من دخل في الإسلام.
- للمحافظة على رابطة الأخوة والاجتماع والوحدة بدأت السورة بتوحيد منهج التلقي، وأمرت بالإصلاح وعدم استمرار الاختلاف والتفرق، وحرمت ما يكدر الأخوة من البغي وسوء الظن والتحقير والنقص للمسلم والولوج في عرضه.
- أول نداء في القرآن بحسب ترتيب آياته في المصحف للناس عامة بأن يوحدوا الله ويعبدوه، وآخر نداء للناس في القرآن في سورة الحجرات بتذكيرهم بوحدة أصلهم فلا مجال لتفاضل بعضهم على بعض بأعراض زائلة، وأكرمهم عند الله أتقاهم.

ثانياً: التوصيات:

- التنبه لما يسميه كثير من الناس عقليات في الأمور الفكرية والعقدية، ووضعه في موضعه الصحيح، فلا يقبل حتى يعرض على الوحي المعصوم قطعي الثبوت قطعي الدلالة فهو الميزان والقسطاس المستقيم.
- تفضيل التسمية التي درج عليها سلف هذه الأمة لما يفرزه فكر البشر بالرأي فلا يسمونه عقلاً، وفي هذا دقة في طرح المصطلح.
- الحرص على الوحدة الإسلامية والأخوة الربانية؛ فهذه الأمة أمة واحدة كما يريد لها الله.
- هذه الأمة أمة أراد الله صناعتها بكتابه وسنة نبيه ﷺ لتكون خير أمة أخرجت للناس؛ فلا تدنس دين الله بتصرفاتها المنبعثة من أهوائها التي تصد عن دين الله، وعليها أن تلتزم آداب دينها وقيمه لترى الناس فيها خير هذا الدين.
- الحرص على الحكمة في تلقي الأخبار ونقدها؛ فكفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع.
- الأخذ بالاعتبار الوحدة الإنسانية في التعايش، والحرص على تقديم الخير للغير.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وأصحابه أجمعين.

قائمة المراجع

١. ابن عاشور، الطاهر بن عاشور. (ت ١٣٩٣هـ) التحرير والتنوير الطبعة بدون، ١٩٨٤ تونس الدرا التونسية.
٢. إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم (تفسير أبي السعود). أبو السعود، محمد بن محمد بن مصطفى، (ت ٩٨٢هـ). بيروت، دار إحياء التراث العربي.
٣. إعلام الموقعين عن رب العالمين. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (ت ٧٥١هـ). تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم. الطبعة الأولى ١٩٩١ بيروت دار الكتب العلمية.
٤. البحر المحيط. أبو حيان، محمد بن يوسف (ت ٧٤٥هـ). تحقيق: صدقي محمد جميل. ١٤٢٠هـ بيروت دار الفكر.
٥. التسهيل لعلوم التنزيل ابن جزى الغرناطي، محمد بن أحمد (ت ٧٤١هـ). تحقيق عبد الله الخالدي. الطبعة الأولى ١٤١٦هـ. بيروت شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم.
٦. التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج. الزحيلي. وهبة بن مصطفى. الطبعة الثانية ١٤١٨هـ دمشق دار الفكر المعاصر.
٧. تهذيب اللغة. الأزهرى، محمد بن احمد (ت ٣٧٠هـ) تحقيق محمد عوض مرعب. الطبعة الأولى ٢٠٠١، بيروت دار إحياء التراث.
٨. جامع البيان في تأويل القرآن. الطبري، محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ) تحقيق أحمد شاکر. الطبعة الأولى ٢٠٠٠ مؤسسة الرسالة.
٩. الجامع لأحكام القرآن. القرطبي، محمد بن أحمد (ت ٦٧١هـ). الطبعة الأولى ١٩٨٨ بيروت دار الكتب العلمية.
١٠. جمهرة اللغة. ابن دريد، محمد بن الحسن (ت ٣٢١هـ). تحقيق رمزي منير بعلبكي. الطبعة الأولى ١٩٨٧ بيروت دار العلم للملايين.
١١. حقائق التفسير. السلمي، أبو عبدالرحمن (ت ٤١٢هـ). ١٤٢١هـ - ٢٠٠١م بيروت، دارا لكتب العلمية.
١٢. درء تعارض العقل والنقل. ابن تيمية، أحمد بن عبد الحلیم (ت ٧٢٨هـ)، تحقيق محمد رشاد سالم. الطبعة الثانية ١٩٩١ الرياض جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
١٣. الزهد والرفائق. ابن المبارك، عبد الله بن المبارك (ت ١٨١هـ). تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي. الطبعة بدون، السنة بدون، بيروت دار الكتب العلمية.
١٤. شرح العقيدة الطحاوية. أبو العز الحنفي، محمد بن علاء الدين علي بن محمد (ت ٧٩٢هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط وعبد الله التركي. الطبعة العاشرة ١٩٩٧ بيروت مؤسسة الرسالة.
١٥. صحيح البخاري. البخاري، محمد بإسماعيل (ت ٢٥٦هـ) تحقيق محمد زهير الناصر. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ دار طوق النجاة.

١٦. صحيح الترغيب والترهيب. الألباني، محمد ناصر الدين (ت ١٤٢٠هـ) الطبعة الأولى ٢٠٠٠م الرياض مكتبة المعارف.
١٧. صحيح مسلم. الإمام مسلم بن الحجاج . تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي. الطبعة بدون السنة بدون بيروت دار إحياء التراث العربي.
١٨. الصواعق المرسلّة في الرد على علي الجهمية والمعطلة. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (ت ٧٥١هـ). تحقيق علي بن محمد الدخيل الله. الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ الرياض دار العاصمة.
١٩. فتح الباري شرح صحيح الباري. ابن حجر. أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ). الطبعة الأولى ١٤٠٧-١٩٨٧ القاهرة دار الريان للتراث.
٢٠. فتح القدير. الشوكاني. محمد بن علي (١٢٥٠هـ). الطبعة الأولى ١٤١٧هـ/١٩٩٦م صيدا - بيروت المكتبة العصرية.
٢١. في ظلال القرآن. سيد قطب. الطبعة الثانية عشرة ١٩٨٦ جدة دار العلم.
٢٢. كتاب العين. الفراهيدي، الخليل بن أحمد (ت ١٧٠هـ). تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السمراي. الطبعة بدون، السنة بدون، دار ومكتبة الهلال.
٢٣. الكشف والبيان عن تفسير القرآن. الثعلبي، أحمد بن محمد (ت ٤٢٧هـ) تحقيق أبي محمد بن عاشور. الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م بيروت دار إحياء التراث العربي.
٢٤. لسان العرب. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ). الطبعة الثالثة ١٤١٤، بيروت دار صادر.
٢٥. اللسان والميزان أو التكوثر العقلي. طه عبد الرحمن. الطبعة الأولى ١٩٩٨ الدار البيضاء المركز الثقافي العربي.
٢٦. محاسن التأويل. القاسمي، محمد جمال الدين (١٣٣٢هـ) تحقيق محمد باسل عيون السود. الطبعة الأولى ١٤١٨ بيروت دار الكتب العلمية.
٢٧. المحرر الوجيز. ابن عطية، عبد الحق بن غالب (ت ٥٤٢هـ). تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد. الطبعة الأولى ١٤٢٢/٢٠٠١ بيروت دار الكتب العلمية.
٢٨. مدارج السالكين. ابن القيم، محمد بن أبي بكر. (ت ٧٥١هـ). تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي. الطبعة الثالثة ١٩٩٦ بيروت دار الكتاب العربي.
٢٩. المستصفى من علم الأصول. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد (ت ٥٠٥هـ) ، الطبعة الأولى ٢٠٠٨ صيدا - بيروت المكتبة العصرية.
٣٠. مسند الإمام أحمد. أحمد بن محمد بن حنبل (ت ٢٤١هـ). تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون. الطبعة الأولى ٢٠٠١ بيروت مؤسسة الرسالة.
٣١. معاني القرآن وإعرابه. الزجاج، إبراهيم بن السري (ت ٣١١هـ) تحقيق عبد الجليل عبده شلي. الطبعة الأولى ١٩٨٨ بيروت دار عالم الكتب.

٣٢. المعجم الكبير. الطبراني. سليمان بن أحمد (ت ٣٦٠هـ). تحقيق حمدي بن عبد المجيد السلفي. الطبعة الثانية السنة بدون القاهرة مكتبة ابن تيمية.
٣٣. مفاتيح الغيب (التفسير الكبير). الرازي، محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ). الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ بيروت دار إحياء التراث العربي.
٣٤. موسوعة لالاند الفلسفية. لالاند. تعريب خليل أحمد. الطبعة الثانية ٢٠٠١ بيروت - باريس دار عويدات.
٣٥. نقد العقل العربي نظرية العقل. طرابيش، جورج، ، الطبعة الأولى ١٩٩٦ بيروت دار الساقى.